الأسرة والأطفال المعوقين

مقدمة :

الأسرة تنظيم أو نسق بالغ التفرد والخصوصية ، لأنه الذى ينضم إليه الفرد منذ بداية حياته ، حيث يكون فى حاجة إليه أشد الاحتياج ، وحيث يجد إشباعاته المادية والعاطفية فى كنفه . ولذا فإن تأثير هذا التنظيم على الفرد تأثير قوى لا يعادله تأثير تنظيم آخر فى الحياة . ولذا فإننا نقول – وهو قول يستند إلى نتائج البحوث – أن الصحة النفسية للفرد ونجاحه فى أداء وظائفه المختلفة فى الحياة يرتبط إلى حد كبير بالمتغيرات المرتبطة بهذا التنظيم الفريد (الأسرة) ، من قبل نوع المناخ الذى كان سائداً فى الأسرة ، وطبيعة المعاملة الوالدية التى يلقاها الطفل من والديه ، ومدى سلامة العلاقات التى كانت بين الوالدين والطفل وصيغتها الانفعالية والوجدانية .

كذلك فإن فشل الفرد فى أداء وظائفه أو تعرضه لاضطرابات نفسية يرتبط – على نحو لا ينكر – بنفس المتغيرات الأسرية ، إن لم يكن هناك عوامل بيولوجية (حيوية) ووراثية (جينية) وراء هذا الاضطراب ، على الرغم من أن العوامل الحيوية والوراثية تتم فى إطار الأسرة أيضاً . وعلى هذا فإن نفس المتغيرات الأسرية السابق الإشارة إليها هى المرشحة أكثر من غيرها كعوامل للاضطراب .

ويقوم هنا الفصل على خمسة محاور يدور المحور الأول منها حول ولادة طفل معوق فى الأسرة ، ويدور المحور الثانى حول استجابة الأسرة لمولد هذا الطفل ، أما المحور الثالث فيتناول مشكلات أسرة الطفل المعوق والمرتبطة بالإعاقة . وأما المحور الرابع فيتحدث عن أنماط الآباء فى الأسرة التى بها طفل معوق . وفى المحور الخامس والأخير نتناول ملامح :

- شكل التفاعل داخل النسق الأسرى أى التفاعل بين أعضاء الأسرة بعد مولد هذا الطفل .
- النسق الأسرى كوحدة واحدة وعلاقته بالأنساق الأخرى ومشاعر أعضاء النسق الأسرى واتجاهاتهم نحو الحادث (مولد الطفل المعوق) .

وسنعرض للتفاعل بين أفراد النسق الأسرى بعد مولد الطفل المعوق ، ونتحدث فى هذا التفاعل عن العلاقة بين الوالدين وكيف تنعكس على الطفل المعوق ثم علاقة الطفل المعوق بأخوته .

أ – العلاقة بين الوالدين وانعكاسها على الطفل المعوق :

مولد الطفل يصبغ جو الأسرة بلون خاص . فمن حيث علاقة الوالدين بالطفل المعوق نجد أنهما يتعاملان مع هذا الإبن على نحو يختلف عما يحدث مع بقية الأبناء . كحالة القلق أو الأسى أو الانشقاق أو الضيق التى تظهر فى نظرة الوالدين نحوه تخلق ميلاً إلى التدخل الزائد فى حياته وتولد الرغبة فى معرفة كل التفاصيل عن طريقة أدائه لوظائفه .

ويحدث هذا التدخل الزائد إلى حد التطفل بصفة خاصة من جانب الأم والتى تكون بحكم دورها التربوى فى الأسرة أقرب إلى الطفل وإلى رعايته . ونجد الأم فى معظم الحالات تقتحم العالم الخاص بالطفل على نحو أكثر مما تفعل مع أبنائها الآخرين ، وتسلك معه على نحو يتسم بالتطفلية .

كما يتسم سلوك الأم – بصفة خاصة – نحو الطفل المعوق فى معظم الحالات بالحماية الزائدة وأحياناً بالرعاية التى تتضمن الرفض اللاشعورى ، وبالتالى غير الواضح لها أو للآخرين . ولكنه يظهر فى درجة الغيظ التى تحاول الأم كبته وقمعه وهى ترعى شئون هذا الطفل . ويجد الوالدان نفسيهما أحياناً مضطرين إلى تعديل بعض عادات الرعاية الوجهة لأبنائها على نحو يتوافق مع رعاية الطفل المعوق .

ومما لا شك فيه أن مولد طفل معوق فى الأسرة يكون بؤرة محتملة للشقاق الزواجى وخاصة إذا كانت شخصية الزوجين تسمح بهذا الشقاق بمعنى أنهما لم يكونا على درجة ملحوظة من النضج ويفتقدان القدرة على تحقيق قدر من التفاهم والتوافق الزواجى ، وكان لديهما استعداد للشقاق والمشاحنات الزوجية فإن مولد الطفل المعوق سيكون سبباً كافياً لاندلاع المزيد من الخلافات وتوسيع شقة الخلاف بينهما ، حيث يحمِّل كل منهما الآخر مسئولية ولادة هذا الطفل . كما يحاول كل منهما التنصل المسئولية الكبيرة والثقيلة المتمثلة فى رعاية الطفل وإلقائها على الآخر .

ولذا فإن الدراسات التى أجريت فى المجتمع الأمريكى تبين أن الانفصال والطلاق يحدثان فى الأسر التى بها طفل ذو حاجات خاصة بمعدل ثلاثة أضعاف ما يحدث فى الأسر التى ليس بها طفل من هذا النوع . وقد أجرى بعض علماء النفس مقابلات مع عدد من الأزواج ممن لهم طفل معوق وقارنوا بينهم وبين مجموعة أخرى ممن لا توجد إعاقات بين أطفالهم فوجدوا أن آباء الأطفال المعوقين نسبوا إلى الأطفال المعوقين المشكلات الزواجية التى تحدث بينهم أكثر مما فعل آباء الأطفال العاديون .

ولكن ليس من الضرورى أن أن يفجر وجود الطفل المعوق الخلافات الأسرية بين الوالدين ، حيث أظهرت الدراسات أن بعض الأسر ممن لديها طفل معوق كانت تحظى بقدر معقول من التوافق والتفاهم الزواجى . ويبدو أن الأمر يتعلق بنضج الوالدين وطبيعة علاقتهما من الأساس . وما مولد الطفل المعوق

إلا سبباً محتملاً للخلافات الكامنة . ويتوقف الأمر بعد ذلك على طبيعة علاقة الوالدين معاً وعلى أسلوبها فى مواجهة مشكلاتهما فقد يكون وجود الطفل المعوق عاملاً مثيراً للخلافات الشديدة ، وقد لا يكون ذلك ، بل قد يكون عاملاً من عوامل التكاتف أو التعاطف المتبادل بلين الزوجين .

ب- العلاقة بين الطفل المعوق وأخوته :

أما عن علاقة الأخوة بأخيهم المعوق فإنهم على نحو ما يعرفون أن أخيهم له حاجات خاصة وأنه يختلف عنهم ، مما يجعل له وضعاً خاصاً ، ويترتب على هذا الإدراك أن يروض الأخوة أنفسهم على نقص الرعاية الوالدية التى تتوفر لهم ، من حيث أن معظم وقت الوالدين وجهودهما سوف يتجه إلى رعاية الأخ المعوق التى تأخذ رعايته نصيباً أكبر من الجهد والوقت والكلفة .

وقد يشعر الأشقاء إزاء الرعاية المكثفة التى يحظى بها شقيقهم المعوق من الوالدين بالغيرة أو الغضب أو المنافسة ، ولكنهم يعودون إلى تفهم دوافع هذه الرعاية ، ويشعرون من جراء ذلك بالإثم أو الذنب ، وقد يتحرج الأخوة من التعبير عن مشاعرهم لآبائهم خوفاً من أن يتسببوا فى المزيد من الضغط عليهم . ويحدث هذا الشعور مع تقدم الأخوة فى العمر ومع تحقيق المزيد من النضج الاجتماعى والخلقى.

وقد يميل أخوة الطفل المعوق إلى أن يكونوا لذواتهم مفهوماً سالباً إذا فارقوا بين أنفسهم ومجموعات الأشقاء فى الأسر الأخرى التى ليس لهم أخ معوق . وقد يخشى هؤلاء الأخوة أن يذكروا لأصدقائهم شيئاً عن أخيهم المعوق ، وما تعانى منه الأسرة خوفاً من أن يتعرضوا لنبذ أصدقائهم . ومن هنا فإنهم يبادرون بالانسحاب من شبكة الأقران مضيفين بذلك المزيد من الإحساس بالعزلة عند الأسرة .

وقد يطلب من الأخوة أن يتحملوا المزيد من المسئولية الشخصية إذا ما كان فى الأسرة طفل له حاجات خاصة . والإبنة الكبرى فى الأسرة هى الأكثر عرضة لتحمل مسئوليات قد تكون عادة من مسئوليات الوالدين . أى أن الأسرة تلبسها ثوب الوالدية قبل الأوان . وقد يكون ذلك على غير رغباتها ولكنها تضطر إلى قبول هذا الوضع على مضض .

فالأم المندمجة فى رعاية طفلها المعوق قد تطلب على نحو صريح من ابنتها الكبرى أن تتحمل القيام بالكثير من الأعمال التى يفترض أنها تقع فى صميم وظيفة الأم نفسها سواء بالنسبة لأخيها المعوق أو بالنسبة لأخوتها الآخرين لانشغالها مع الأخ المعوق .

ويتعرض الأبناء فى الأسرة التى بها طفل معوق إلى خبرة المشاعر حينما يجد الأبناء الأصغر من الطفل المعوق رغبة فى أنفسهم فى تخطى الأخ المعوق وهو أمر يكون ميسوراً عليهم لتواضع إمكانياته . وقد يكونون مدفوعين فى ذلك بالرد على حسابهم أحياناً .

ولكن هذا التفوق أو حتى تخيله والشعور به من شأنه أن يثير أحاسيس الذنب لديهم ويجعلهم يلجأون إلى إخفاء قدراتهم وإنكار مواهبهم ، بل وقد يرفضون الاشتراك فى الأنشطة التى تظهر إمكانياتهم واستعداداتهم تحرجاً من إيذاء مشاعر الأخ المعوق والوالدين .

وقد يتعرض الطفل المعوق من جانب أخوته وأحياناً من جانب الوالدين أيضاً إلى أن يعامل ككبش فداء لكل جوانب النقص أو القصور فى الأسرة . حيث يميل الأبناء والوالدان معهما إلى نسبة المشكلات والمصاعب التى تعانى منها الأسرة إلى وجود هذا الطفل المعوق فهم قد يدركون مثلاً أن الأسرة لا تحظى بفرص ترفيه كافية وأن الأسرة لا تحظى بعلاقات أسرية هادئة ، وأنها أسرة محرومة من تبادل العواطف الدافئة وأنها أسرة معزولة لا تزار من جانب الأسر الأخرى ولا ترغب هى أن تقوم بزيارة الأسر الأخرى أيضاً .

كل ذلك وغيره من المشكلات تثور بسبب هذا الطفل المعوق . وكثيراً ما يتقبل هذا الطفل المعوق أو يجد نفسه مضطراً إلى قبول دور كبش الفداء لأن ذلك يرضى الآباء والأخوة ، ولذا فإنهم يعززون امتثاله للقيام بهذا الدور لأنه بذلك يعفيهم من بذل الجهد لفهم المشكلات وتقصى أصولها وتحمل كل طرف مسئوليته فى نشأتها أو مواجهتها .

ثانياً : **استجابة الأسرة لمولد الطفل المعوق** :

أما الجانب الآخر الذى حظى بعناية الباحثين فى أسرة الطفل المعوق فهو استجابة الأسرة لمولد هذا الطفل أو على الأصح التتابع السلوكى أو الاستجابى لمولد هذا الطفل . وتمر أسرة الطفل المعوق بخمس مراحل يمكن تمييزها بشكل نسبى والإشارة إليها كالآتى :

1- مرحلة الصدمة :

وهذا هو الشعور الذى يشعر به الوالدين بمجرد مولد الطفل المعوق أو بمجرد علمهما بوجود إعاقة لدى الطفل ، خاصة فى ظل تطور أساليب وأدوات المتابعة والتشخيص للأم فى مرحلة الحمل . والذى يسبب الصدمة هو التقابل الحاد بين التوقع والواقع . فالوالدان يتوقعان طفلاً جميلاً مكتمل القدرات يكون مبعث السرور والهناء لهما ، ويضيف البهجة إلى جو الأسرة . إلا أن الواقع يوقظهما من الحل الجميل على طفل معوق يعانى من مشكلة جسيمة أو حسية أو عقلية .

2- مرحلة الإنكار والتشكك :

وغالباً ما يتبع الشعور بالصدمة إنكار لهذا الواقع الصادم وعدم تصديقه أو التشكك فى صحته وخاصة إذا كانت المعلومات عن إعاقة الطفل قد توافرت قبل مولده . ويظل الأمل قائماً فى عدم دقة المعلومات المتاحة والرجاء فى أن يولد الطفل سليماً بريئاً من أية عيوب .

3- مرحلة الانفعالات العنيفة :

وعادة لا تستمر المرحلتان السابقتان وقتاً طويلاً حيث يفيق الوالدان من الصدمة أو الإنكار والشك على الواقع المر الذى عليهما أن يتجرعاه وأن يعترفا به ، ولا سبيل إلى إنكاره . وهى المرحلة التى تتسم بالحزن العميق الممزوج بالقلق الشديد . ويتفاوت الحزن والقلق مع الشعور بالغضب والسخط وعدم الرضا بما حدث مع التساؤل عن سبب هذه الإعاقة ؟ وكيف حدثت ؟ ولماذا هما بالذات ؟ وما الحكمة فى ذلك ؟ وما عساه أن يكون موقفهما من الطفل ؟ ومن شعورهما نحوه ؟ وما مستقبله ؟ .